رواية "ستة أيام"

لـ حليم بركات: رواية حرب مستمرة

د. عبد النبي اصطيف

أستاذ الأدب المقارن ونظرية النقد والترجمة في جامعة دمشق.

رواية ستة أيام(1) للروائي والقاص وعالم الاجتماع حليم بركات، رواية حرب مستمرة، ومع أنها رواية قصيرة نسبياً، فإن نصها، الكثيف النسج، غني بالدلالات البعيدة والقريبة. وعلى الرغم من أنها نُشرت عام 1961، أي قبل أكثر من ستة عقود، فإنها تغري الناقد بدراستها، لما تتيحه من وجوه تدبّرها المتنوعة.

فهي بداية مفعمة بالإشارات الأسطورية المتصلة بالشرق القديم، وفلسطين، واليونان، بشكل خاص (جلياد، والبعل، وجلقامش، وأدونيس، وتموز، وأرض كنعان، ودلفي وغيرها)، وبالإشارات الأدبية العربية (جبران خليل جبران) والأجنبية (مسرحية هملت لشكسبير، ودون كيخوته لثيربانتس) وبالإشارات المتصلة بالموسيقا (فاغنز، المعادي لليهود) والفلسفة (نيتشه)؛

وهي بعد ذلك قد تبدو للبعض استشرافاً لهزيمة حزيران، مع أن صاحبها يستبعد ذلك. فهو يؤكد لمحاوره هاشم قاسم، في مقابلة معه نُشرت في مجلة المستقبل العربي عام 2009، أنه لم يقصد أن تكون روايته نبوءة، ويضيف:

"في المرحلة الأولى سبق أن نشرتُ سنة 1961 روايتي الثانية ستة أيام التي تصورت فيها وقوع حرب بين إسرائيل والعرب، ولتكثيفها قلت إنها تمت في ستة أيام. وعندما قامت الحرب الحقيقية عام 1967 كتبت رواية أخرى بعنوان عودة الطائر إلى البحر التي تروي الحقائق التي حصلت في تلك الحرب. وكثرٌ هم النقاد الذين اعتبروا ستة أيام نوعاً من النبوءة. لكنني رفضت مثل هذا التوصيف وفضلتُ تعبير: الوعي بالواقع العربي الرزين والهش تجاه أعدائه"(2)

فهو، فيما يبدو، يصدر في تصوره للحرب غير المتكافئة بين "دير البحر" و"أعدائها" (الذين أنذروا أهلها وخيّروهم بين الاستسلام والعيش بأمان أو المحو من خريطة الوجود، ثم غدروا بهم وهاجموهم قبل انتهاء مدة الإنذار) عن أسطورة

الخلق(3)، وعن هذه المقابلة الصارخة في تضادّها بين عمل الخالق في خلْق الكون في ستة أيام، وبين عمل المخلوق في تدميره لهذا الكون كذلك في ستة أيام، فضلاً على استحضاره لفصول النكبة التي قامت على تطهير عرقي عنصري لأرض فلسطين من أهلها، للتدليل على زعم الصهاينة بأنها أرض بلا شعب، قد منحها الرب لشعب بلا أرض.

كما أنها في الواقع نقد عنيف وصريح للمجتمع العربي، الذي يتحمل في الحقيقة مسؤوليةَ ما وقع للفلسطينيين في نكبتهم، ووِزرَها، ويتحمل كذلك مسؤولية غفلته التي أودت به في مهاوي النكسة التي لم يستطع حتى اليوم محو آثارها. إذ كيف لمجتمع كهذا، الذي يصف الروائي عيِّنة منه، أن ينتصر على عدوه، بل أن يحافظ على ما تبقى بيده من وطن وأرض وحياة؟ نعم كيف لمجتمع "دير البحر" أن يواجه عدوّاً احتل أجزاء من أرضه، ويتربص به موجهاً الإنذار الأخير، الذي يُخيِّر فيه أهلها بين الاستسلام والعيش بأمان في ظل الاحتلال، أو المحو من خريطة الوجود؟ بل هل وجوه مواجهته التي أبداها يمكن أن تغيّر حصيلة مواجهته لعدوه؟

ولننظر، على أي حال، إلى أشكال هذه المواجهة لنتبين عبثها، وأنها لم تكن بمستوى التحدي الذي يمثّله الإنذار.

أول أشكال المواجهة للعدو كان الخُطب الرنانة التي ألقيت في الاجتماع العام الذي عقدته البلدة، والذي قرر فيه المجتمعون الصمود. وكان فارسا هذه الخطب كل من عبد الجليل وسهيل؛

وثاني هذه الأشكال الاندفاع إلى التظاهر والطواف في شوارع البلدة. مع أن اندفاعهم لم يكن يستهدف وجهة محددة:

"**المظاهرات تغلي في شرايين البلدة. اندفع [سهيل] مع تيار المتظاهرين الجارف. سأله رجل: إلى أن يندفعون فأجاب لا أدري. وجد نفسه يقول لا أدري، فتوقف**" (ص 12)(4).

فضلاً على الإنشاد، والاحتفالات المعتادة:

"**أصوات المحتفلين تقترب نحوهم.. تقترب. غناء شعبي يختلط بالأصوات، ينطلق عن مسرحها. ويسرع. لماذا يحب الغناء الشعبي، يجتذبه قبل أن يظن أنه سمعه. ربما لصدقه. ربما لأنه جزء من طفولته. يسرعون. يجدون أنفسهم في الساحة العامة وسط جمهور كبير يصخب. ينجذبون نحو حلقة تدبك لدير البحر. يشقون طريقهم بين الوجوه الفرحة المتحدية. في حياتهم شيء جديد. يعيشون من أجل شيء. ويحدق بالوجوه. رجل عجوز يدبك. طفل بين الأقدام يحدق. مؤخرة فتاة تتوثب إلى الوراء. تمتد يده نحوها. تلامسها وتعود إلى جيبه. يتظاهر أنه يتأمل الدبكة**" (ص 52).

"**المحتفلون يحيطون بناهدة. صراخهم يرتفع نحو تمثال أبيها. صوت يرتفع مجلجلاً "يعيش الشهيد إبراهيم العامري". فتتجاوب الأصوات "يعيش إبراهيم**

العامري". في أصواتهم حرارة. عرف كيف يجسد آمالهم. هو ماذا؟ لا شيء سوى أنه يطالب بحريته، ترى ألا تريده ناهدة أن يطالب بحريات الآخرين؟ فريد يدبك. ما يزال بلباس التدريب. يشير إلى المغني أن يغني. منديله يدور على نفسه في الهواء. يرتفع الصوت المبحوح. يتطلع بكبرياء وتحد. الأقدام تنتظر بهدوء، تتحرك بهدوء وتصخب فجأة. تضرب الأرض بتحدٍ" (ص53)؛

وثالثها الاتكال على جيش الدولة الشقيقة (ص14). وتكليف سهيل وعبد الجليل من قبل رئيس البلدية بالاتصال مع رئيس أركان جيشها (ص24)، والاطمئنان إلى مساعدتها وكأنه واقع وحقيقة.

"**لا حاجة للتخوف بعد الآن. قلت إننا نتعامل مع دولة شقيقة يهمها الأمر كما يهمنا**" (ص 58).

"**سيرسلون لنا الضباط ليشرفوا على إعداد المعركة، أما السلاح فهذه صفقة منه. بعد يومين. يوم الخميس يكونون قد هيؤوا لنا صفقة ثانية** (ص 58).

"**بعد غد يزحف على رأس جيش لإنقاذ دير البحر يرد عنها الجراد**" (ص136).

"**الناس [في اليوم الرابع] يتجمعون حول الراديو يصغون إلى إذاعة الدولة الشقيقة تشجعهم على الصمود في وجه الأعداء**" (ص123).

"**هجوم حقيقي. مدة الإنذار لم تنته بعد. كان من المنتظر أن تقع المعركة غداً. أين جيش الدولة الشقيقة؟**" (ص 153)؛

ورابعها التدرّب على استعمال أسلحة خفيفة وبدائية، ولكن بعد أن بدأ الوقت يداهم دير البحر" ولا يفصلها عن إنذار العدو غير أيام؛

وخامسها جمع ما يمكن جمعه من مال لشراء السلاح. وهو ما تولاه عبد الجليل:

سنفرض على كل عائلة دفع بعض الفلوس بقدر ما تكون الفلوس تكون الأسلحة" (ص 58)؛

وسادسها الهرب من دير البحر تسللاً؛

وسابعها الهروب إلى الجنس من جانب كل من سهيل ولمياء وناهدة. اقتناصاً لفرصة الحياة المتاحة والتي قد تتبدد في نهاية الأسبوع؛

وآخرها الموت المجاني كما جرى لأسرة عم سهيل وغيرها من الأسر، فضلاً على الشباب الذين فضلوا الموت على الاستسلام للعدو، وقاتلوه حتى آخر رمق من حياتهم (فريد وصحبه).

إنها، بحق، مواجهة ميؤوس من حصيلتها، ومآلها النكبة، والنكسة، والخزي.

وفضلاً عما تقدم فإن الرواية تقدم، في ملامح بعض شخصياتها، فسحة مقارَنةٍ شائقةٍ وشائكةٍ في آن معاً لتأثير كتاب كولن ويلسون "اللامنتمي"(5) The Outsider، ولاسيما شخصية سهيل الذي يبحث عن انتماء يُخلِّصه من الضجر الذي يعاني من عقابيله، فينغمس في تجارب جنسية، رافعاً راية التمرد والتحدي العبثي

الذي يقترب به من صنيع دون كيخوته(6).

وثمة ظاهرة لا تقتصر على هذه الرواية، وهي تمكّن النزعة الذكورية Patriarchy من شخصية سهيل المهيمنة على العنصر النسائي في الرواية، حيث نجد أن سحره لا يُقاوَم، ويطال، فضلاً على ابنة أحد الضباط الأعداء، هدى الذي تنظر إليه بإغراء كلما خرج من شقته، ولمياء التي تصرّح بحبها له، وتكاد تمكّنه من نفسها لولا أنه ضنّ عليها بالتصريح بحبها، إذ كان قد تعلق قلبه آنذاك بناهدة، مع أنه لا يتردد من القيام بزيارتها والخلوة بها، وناهدة التي تتنكر لمنزلة أبيها، الشهيد في البلدة وتُعرِض عن مناشدات أمها، وتبذل له أغلى ما تملك، ساعية لمرضاته، مقتنعة بنزعة التمرد والتحدي التي يبديها، والتي أخذتها عنه.

وأخيراً فإن الرواية تنطوي على تحذير شديد اللهجة، بل وعيد بالثبور وعظائم الأمور، للأجيال العربية، بل إنها نذير بالموت والدمار للوطن إن بقيت على حالها، الذي لا يسمح لها حتى بالمقاومة، بَلْهَ الحفاظ على ما تملكه، أو مما تبقى لها من وطن، وكرامة.

وحتى بذرة الأمل الوحيدة التي تنطوي عليها فكرة "الرماد الذي يخضب الأرض" (ص 172) مرهونة بمن يفيد منها: بالعناية بزراعتها، وإنمائها، لتثمر مستقبلاً أفضل من حاضر بائس، وماض قريب مخز.

هوامش:

1ـ انظر: حليم بركات، ***ستة أيام***، طبعة ثانية (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، 2000).

2ـ انظر: هاشم قاسم، "مقابلة مع الدكتور حليم بركات"، ***المستقبل العربي*** (بيروت)، العدد 369، تشرين الثاني، 2009.

3ـ انظر مراجعة ياسر سليمان للترجمة الإنكليزية للرواية:

Yasir Suleiman, Halim Barakat, ***Six Days***, Translated into English by Bassa Frangieh and Scott McGhee, Three Continents Press , 1990, in ***Journal of Arabic Literature***, XXIV, p.208.

4ـ تشير جميع الأرقام الواردة بين قوسين إلى صفحات الرواية المذكورة في الهامش السابق.

5ـ انظر: كولن ولسون، ***اللامنتمي***، ترجمة أنيس زكي حسن (دار العلم للملايين، بيروت، 1958).

6ـ فهذا سهيل، بطل الرواية المثقف تحدّثه نفسه **أنه دون كيشوت آخر؟** (ص 30)، و ها هي محبوبته الأخيرة ناهدة تتساءل: "**تراها دون كيشوت؟ جمدت في مكانها. ما هذا التحدي الدون كيشوتي**" (ص 166).